صفحات من رواية لم تُنشر بعد

# شاعر رغم أنفه

أحمد سليمان

## الوليّ

كان والدي، رحمه الله، يَفْخر دومًا بأنّ بِرْكة القرية تَحْمل اسمَ العائلة. وكان يعيد مفخرةَ العائلة تلك إلى جده الرابع ـ أو لعله الخامس... لستُ واثقًا، تمامًا كما نسي هو العددَ الصحيح.

فقد كان يعيد ويكرِّر في مجالس السَّمر أنّ جده ذاك كان مهندسًا فذًا لا تعوزه الشهادةُ في عبقريته لأنّها تَكْمن في طبيعته. ومن لذيذ المواقف أنّ الجمع الساهر في ليالي الحصاد كان يهزّ رأسَه موافقًا دومًا، داعين له بالرحمة، ولذاكره ـ والدي ـ بطول العيش... الأمر الذي لم يستجب لهم.

وكان والدي، في ساعات تجلّيه الكثيرة، يقول لوالدتي: «فوقه، لا مكان غيره. هل تفهمين؟» وكانت والدتي تهزّ رأسَها موافقةً وهي تتمتم: «بُعْد الشرّ...» كانت تلك وصيتَه، وكان له ما أوصى به: فقد تمّ دفنُه فوق جده الرابع أو الخامس. وقال لي أحدُ المشيِّعين فيما بعد إنّ عظام الجدّ لم تكن قد ذابت بعد، وإنّها عند فتح القبر كانت صفراء باهتةً ذابلةً. وذكر لي أنّه ما إنْ أُحضر جثمانُ والدي حتى أينعتْ تلك العظامُ واشتدّ عودُها، وكأنّها امتدّت تحتضن حفيدَها.

وللحقيقة والتاريخ أقول إنّي كنتُ قد سمعتُ اللعنةَ مجلجلةً في أذني بحقّ جدي، المهندس العبقريّ، مرةً واحدةً لا غير: يومَ غرق محمود السالم في بِرْكة القرية. وللإنصاف فقد دافع أهلُ البلدة عن جدي بضراوة، متّهمين محمود السالم بالخطإ: فما من أحد، على حدّ ظنّهم، يَدْخل في بِرْكة، في عزّ المطر، ليبحث عن قرشٍ فلسطينيٍّ صدئٍ أضاعه فيها قبل ثلاث سنوات، وعلى الأخصّ إذا لم يكن يعرف السباحةَ أصلاً. وازداد اللغطُ طويلاً حتى اعترف أخيرًا محمد السالم، أخو الغريق، بأنّ عائلتهم تعاني لوثةً في رزانة العقل، وبأنه هو ذاته نصح أخاه طويلاً، يومَ غرقِهِ، بأنْ يرجئ البحثَ حتى الصيف.

وأما المهندس، جدُّ والدي ذاك، فقد أتته الفكرةُ من أجل جمع ماء المطر. فقد كانت الآبار تُلْزمهم العملَ المضنيَ لسحب الماء منها، للسقي صيفًا ولشرب القطعان العطشى. واقتنع الجميعُ بالأمر وانبروا دفعةً واحدةً برفوشهم يَحْفرون، وكان في مقدمتهم ـ في ذلك العهد ـ المختارُ والإمامُ وجدّي.

وهناك مَنْ همس في أذني أنّ المعارض الوحيد لتلك الفكرة في حينه كان الجدّ الرابع وربما الخامس لمحمود السالم، الذي افترض حينَها أنّه قد يأتي ذلك اليومُ الذي سينزل فيه أحدُ أحفاده تلك البركةَ بحثًا عن قرش ضاع له ولن يخرج منها إلا إلى القبر. وتابع محدِّثي ذاتُه همسًا في أذني: «إنّها نبوءة.. قد يكون الرجل وليًا!»

وفي الصيف التالي، حين عاد سالم الدبس من صفد، قال معقِّبًا على ما سمعتُ: «هو أغبى الأولياء.» ثم حذّرني: «لا تردِّدْ ما سمعتَ حتى لا يُقام له مزار.»

ولقد أثبتت لي الأيامُ، فيما بعد، أنّ صاحبي سالم الدبس، زيادةً على كونه صاحبًا وشاعرًا، وليٌّ يقرأ ما سيكون.

## العيد

وكان ما توقّعه لي خالي: فقد أصبحتُ في بضع سنوات أعظمَ راعٍ في القرية. ولطالما حسدني زملائي الرعيانُ لصحبتي خالي، صاحبَ الفضلِ عليّ: فهو، باعترافهم، أعظمُ عظماء رعيان المنطقة.

وكنتُ أمنّي النفس دومًا بحلول الصيف لأنّ سالم الدبس سيشاركني ما تبقّى من الطفولة على منحدرات الجليل، بين جذوع الشجر وسيقان الطرش. وكانت ابنةُ خالي ريم، ثالثُ شلّتنا، تَلْحق بنا متعلّلةً بالبحث عمّا تيسّر من البقل.

ذات يوم قال سالم وهو يبحث بناظريْه عن شيء خلف الأفق: «لقد نصحوني في المدرسة بلبس النظّارة. قالوا إنّ نظري ضعيف!» أحسستُ لحظتها بشيئين في آن: فبينما افترّت شفتاي عن بسمة لطيفة، غاص قلبي بما يُشْبه الألمَ العميق. فها هو صاحبي يصبح شاعرًا ومتعلِّمًا بنظارة حقيقية، ولكنْ قد يؤدي به الأمرُ إلى فقدان نظره كذلك. فعدتُ إلى صاحبي على صوته يقول: «لقد رفضتُ. لا أريد أن أصبح أضحوكة.» فقلتُ باعتراف حميم: «خير لي أنّي تركتُها باكرًا.. المدرسة.»

وبعد أسبوع حلّ العيد.

قال لي خالي في المساء إنّه سيَرْكب فرسَه غدًا إلى صفد. قال إنّه سيرافق بعضهم في الذهاب للتأكد من أنّ العيد يحلّ بعد غد، وبأنّه سيعود ومعه بعضُ الحاجيات. وطلب ألاّ أتأخّر مع الطرش في الغد.

وفي الغد، وصلتُ مع الفجر إلى الطرش. وعند الظهيرة لحق بي سالم الدبس، ومن بَعْده وصلتْ ريم. قالت إنّها ستَجْمع بعضَ الزهر.

جلسنا ثلاثتنا، شلة الحساسين، وكأننا على موعد مع اللقاء. سأل سالم عن الطرش وعنها، وسألتْ هي عن صفد، وسألتُ أنا عن النظّارة. وفرحنا لأنّنا على أبواب العيد. فقال سالم: «لقد كتبتُ شيئًا عن العيد. هل تسمعون؟» فهززتُ رأسي موافقًا، بينما مدت ريم رأسَها بتلهف: «هي قصيدة. لا شك جميلة!»

وقرأ علينا قصيدة جميلة، رأيتُ فيها الفرحَ وسمعتُ فيها الغناء. لا أذكرها الآن، لكنْ عَلِقَ منها في ذاكرتي مطلعُها: «اليوم عيد ... اليوم عيد... في قلبنا حبّ سعيد.»

كنتُ فرحاً جدًا. أحسستُ أنّه يقرأ القصيدة لي. وقالت له ريم بدلال: «كأنّك تقرأها لي.» فلذتُ بالصمت للحظة، ثم اعترفت: «إنّ القصيدة جميلة جدًا.»

غادرتْنا ريم وهي تحمل في قبضتها باقةً ملوّنة. اختفت خلف الربى ونحن نلاحق قمزاتها السعيدة.

«إنّي أحبها،» قال سالم بنبرة صبيانية ما زالت تتهادى في أذني. قال: «إنّي أحبّها،» وأنزل عينيْه نحو الأرض، لكنّه لم يُفْلح في إخفاء اللمعةِ فيهما. «إنّي أحبّها،» قال وأشْعل نارًا في صدري.

تابع بشيء عن ذكرياتنا، عن الحساسين والزيزفون. ثم قال إنّه سينتظر سنتين، أو ربما ثلاثًا، ويخطبها.

وفي الغد كان العيد. وكان من المُتَّبَع أن يأتي معه الفرحُ.

**عنتر**

لا مجال أمامي سوى ذكر الحقيقة، وقد حاولتُ إغفالَها.. دون جدوى. وهأنذا أسردها الآن دون أن أقصد منها السخرية حتمًا.

كان خالي يلثغ بحرف الراء فيلفظه واوًا. قالت والدتي إنّها ضربةُ عين منذ ولادته، وقال والدي ـ رحمه الله ـ إنّها شقاوة طفولية كلّفَتْه غاليًا. أما أنا فتمثلتُه موسى، عليه السلام، يَمْضغ جمرة.

وكان خالي يُفْرح قلبي الصغير حين يَطْلب مني، في لحظات سعادته أو تعاسته، أن «أُحْضو له بطحة العَوَق.» فأبتسم للفظه وأركض كالغزال إلى سرج فرسه وأسحبها، أو إلى خلف دارهم لأُفرج عنها من تحت أكوام الحطب.

لم يكن خالي سكّيرًا، لكنّه كان يحبّ العرقَ ويحبّ الفرح: «إنْ لَجَمكْ سوادْ يومكْ حَوَّكْ بياض العَوَقْ.» ولن يلجمني سوادُ يومي، اللهم إلاّ بعد سنوات، ولكنْ.. لن يحرِّرني بياضُ العرق. ولم تكن تُعجز الحيلةُ خالي في إخفاء أثر المشروب؛ ففي جيوب معطفه القديم وفي صدرية قنبازه أخفى خصلاً من البقدونس والنعناع وكبشًا من حَبّ الهال.

كان موعدُنا، في ذلك اليوم بالذات، باكرًا. فقد أبدع ثورُ الطرش أيّما إبداع، وحان موعدُ قطاف ثمار إبداعاته. ففي الوعر رتعتْ خمسُ بقرات على وشك الوضع. لكنّ خالي يومَها، على غير عادته، تأخّر عن الحضور. انتظرتُه عبثًا، ثم قررتُ بعد تحسُّبٍ أن أقصد منزلهم.

لم يكن بيتُهم بعيدًا. وعند باب الحوش سمعتُ صوته يَلْغط بشكل سريع، وينادي في لحظاتٍ متباعدةٍ زوجتَه بصوتٍ ينمّ عن الفرح. وقفتُ قرب الباب أتنصّت، فسمعتُها تحذّره بهمس ورجاء: «ستفضحنا.. سيسمعنا الجيران.» لكنّه عاد إلى صياحه المرِح يقول: «أوقصي لي!» فيعود ردُّها بما يشبه الخجل: «لن أرقص لأحد!» وحين عاد إلى كلماته ضاحكًا أسرعتُ، مدركًا أنّ خالي قد أتى على بطحة العرق، فطرقتُ البابَ ساعيًا في الدخول دون أن أُدرك إنْ كان ذلك رغبةً مني في الذود عن امرأة خالي أَمْ طمعًا في بعض الضحك والمرح؟!

وللمفاجأة، فتح لي خالي البابَ. كان يعتمر فوق رأسه سروالَه الأبيضَ الداخليَّ، الأمرُ الذي أضحك زوجتَه وريم، الواقفتين خلفه بخجل. ولفّ نفسَه بقمبازه كيفما اتفق. وحين لحظني فَتَحَ شدقيْه بضحكة مجلجلة وقال: «أنا عنتَو!» ثم التفت إلى زوجته فاتحًا ذراعَه اليمنى وهو يتابع: «عبلة.. هيا يا عبلة، أوقصي لي!» وبصخبٍ عارمٍ ارتخى فجأةً وهوى على الأرض، وهو يتمتم من بين شفتيه: «يا عبلةُ أنا عنتَو.. يا عبلة أنا عنتَو!»

[...]

**البزمة**

عاد خالي بعد الظهر من صفد. قال: «إنّ العيد غدًا.. هذا أكيد!»

فرحتْ أمي، وفرحتْ أخواتي وأولادُها الصغار. أما أنا فكنتُ مضطربًا لا أعرف هل ما رسمتُه على شفتي كان بسمةً أم زمّةً.

عادت ريم إلى القرية أولاً، ثم لحق بها سالم الدبس، بعد أن قال إنّه يخطِّط لخطبتها. وتركاني هكذا وحيدًا.. وحيدًا بحقّ.

جلستُ لبضع ساعات أسرِّح بناظري، أسلّي روحي وأضحك من نفسي. حتى قررتُ أنّ خير جليس لي في معمعتي هذه هي الزيزفونة، فعدتُ إليها. وفي البيت التقيتُ بفرح الأهل بقدوم العيد، فابتسمتُ، ثم زممتُ، وتابعتُ الطريق إلى تحت الشجرة.

كانت تنتظرني.. لم تنسني الشجرة، وما نسيتْني أوراقُها. فما إن اقتربتُ حتى اهتزّت فروعُها لنسمةٍ هَبَّتْ من ناحية الشمال، فرددتُ عليها التحيةَ ببسمة هذه المرة، ثم طأطأتُ وقلتُ: «إنّي أعرف أنّك تعرفين!» لم تجب، فتابعتُ: «سالم الدبس.. لا يعرف لنفسه حدًا!» نظرتُ إليها فإذا بها تقلِّب صفحات وريْقاتها الغامقة نحو الأسفل. «حساسينُكِ شاهدةٌ على كون ثالثتنا ابنةَ خالي أنا!» ولدهشتي تنحنحت الزيزفونةُ فجأةً، وقالت بهمس مألوف: «هل جننتَ؟ أتكلِّم نفسَك؟!» فبحلقتْ بها عيناي، وعادت بي خطواتي إلى الخلف دون أن أشعر، عادت بي حتى اصطدمت بسالم الدبس وهو واقف ينظر إليّ. رفعتُ حاجبي وأشرت نحو الشجرة فاتحًا فمي لأخبره، فإذا به يسبقني، ويَسْتر عليّ غبائي، ويقول: «هل جُننتَ؟ أتكلّم نفسك؟!»

ارتخى حاجباي وهدأتْ نبضاتُ قلبي، وأدركتُ ما كان.

قال سالم إنّه أتى بقصيدة جميلة كَتَبَها بسعادة من أجل ريم. وصارحني بأنّه استوحاها من قمزاتها الرشيقة وهي تَحْمل باقتَها وتختفي خلف الرابية الخضراء. ثم عاد وقال منغِّمًا كلماته: «كم هي جميلة! هل رأيتَها؟!» فأجبته بهزّة من رأسي، فهو يسألني إنْ كنت قد رأيتُها؟! أيُّ سؤالٍ غبيّ! وإنْ كنت أقدِّر مدى جمالها؟! ما أشدّ غباءه!

ظللنا صامتيْن دون أن ننتبه: هو صامت على ما يعتمل في صدره، وأنا صامت على ما يعتمل في صدري... وثالثتُنا، ريم، ليست هنا.

أخيرًا قال لي: «ما بك صامتًا؟!» فعدتُ إلى بلاهتي الأولى، لا أدري إنْ كنتُ أرسم على شفتي بسمةً أم زمّة. قال سالم الدبس يسألني: «ما هذا الذي على شفتيك؟ أهي بسمة أم زمّة؟!» ثم ضحك: «أظنُّها بزمة.»

ضحكنا معًا حتى القهقهة. وحين هدأنا، قرأ لي القصيدة تحت زيزفونتنا. وهذا، على ما أَذْكر، مطلَعها:

«أُنظرْها تَحْمل بين أناملِها الوردْ

أهي حلم؟ أهي رسم؟ أهي وعدْ؟

مثل ريم حلوٍ يَقْفز بجيده المشوق

وساحرة العينين والشفتين والخدْ.»

وفي الغد، حلّ العيدُ، وقتُ الفرح. وعلى شفتيَّ أطلَّتْ بزمة.

[...]

**القلم**

كان خدّا ريم يتورّدان حين يلقي سالم الدبس بقصائده على مسامعها. يتورد خداها وتتألق عيناها. أما قلبي فيَسْقط في بئر سحيقة.

قلتُ لها إنّي بتُّ لليال طويلة في مغارة الخيط، وإنّي لبطتُ الثعلبَ فقتلتُه حين همّ بمهاجمة جدْيٍ صغير. فقالت إنّي بطل مغوار وفارس صنديد، لكنّ خدَّيْها لم يتورّدا. وفجأةً، ومن بين ثنايا الروح، جاءتني الفكرة.

عدتُ يومها إلى البيت باكرًا. بحثتُ في كلّ مكان، وعندما يئست ركضتُ إلى بيت أختي وقلتُ للولدين: «أريد قلمًا!» وبسرعةٍ خرجتُ وفي حوزتي قلمٌ وورقة.

أنا أحب ابنةَ خالي ريم؛

ريم تحبّ الشعر؛

سأكون إذن شاعرًا!

جلستُ تحت زيزفونتنا طويلاً. راقبتُ فروعَها وأوراقَها، ولاحقتُ حساسينَها، ووضعتُ كفّي حول رأسي مفكّرا: «كيف أصبح شاعرًا!»

ودون أن أدري قلتُ شعرًا. لا أدري من أين جاءتني الكلمات، لكنّي قلتُ فيها شعرًا. قلتُ قصيدةً طالت أبياتُها وألمتني. خرجتْ من داخلي، من حيث لا أدري: من جراح في صدري زادتْها عمقًا، ومن حرارةٍ في قلبي زادتها لهيبًا. وانسابت الكلمات من بين شفتيّ حتى كادت تُغْرق الأجواءَ بعذوبتها. وطالت القصيدة. طالت وطالت حتى قررتُ، غصبًا، أن أنهيها. فتوقّفتُ عن القول، وكانت كلمة الختام: «ريم.»

وتذكّرتُ القلم في يدي، فرجوتُه أن يخطّ الكلمات على الورقة... عبثًا. لم يكتب القلم شيئًا مما قلتُ؛ كان ميتًا. بحثتُ بين شفتيّ عمّا قلتُه، ونبشتُ صدري وقلبي عمّا خطّت جراحُهما... دون جدوى. لقد جفّ كلُّ شيء.

وفي وسط الصفحة البيضاء، بعدما أضناني التعب، ارتسمتْ كلمة واحدة: «ريم.»

[...]

**أنانية**

وصل سالم الدبس، غريمي، مع الفجر. ترك صفد في ساعات الليل المتأخرة وجاء وحيدًا، على قدميه، وهو يتوخّى الحذر. لم يَحْمل معه هذه المرة شِعْرًا، بل حمل أخبارًا كانت قد سبقتْه.

فبالأمس ظهرًا جاء رجل من ديشوم. قال إنّ رجالاً ونساءً من الجيران الجدد، بلباسهم الأسود والرصاصيّ، يقطعون الطرق، وإنّهم يسلبون كلَّ ما يجدونه، ويذبحون كلَّ مَنْ تقع أعيُنهم عليه.

وبعد الظهر وصلتْ جماعاتٌ من النساء والأطفال بصحبة بعض الرجال. قالوا إنّهم من سهل الحولة وإنّ الجيران الجدد هاجموهم مع الصباح، فذبحوا الرجالَ وسرقوا الحلالَ وأحرقوا البيوت. وقالوا إنّهم يحملون أسلحةً ناريةً لا مثيل لها.

ومع فجر اليوم التالي وصل سالم (...)

سمعتُ صوته يناديني، فخرجتُ ألاقيه بروح كسيرة وعينيْن منتفختيْن. وكان كلبُنا قد وصله قبلي، رغم ثقل همته، وأقعى تحت قدميْه ينظر في عينيه ولا يحرّك إلا ذنبَه.

صافحتُ سالمًا مثلما يفعل الكبار، ومضينا متمهّلَيْن نحو الزيزفونة. قال سالم انه غير مرتاح، وإنّ الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ. وقلتُ له إنّ المقبرة قد صودرتْ بأكملها منذ أسبوع، وإنّ «أبو فهيم» ترك بيتَه القريب من بيت الحاج محمود إلى بيت شقيقه في الطرف الآخر من القرية بحثًا عن ملاذٍ له ولآل بيته من مناوشات الجيران الجدد. وسألني أخيرًا عن دار خالي، فأخبرتُه أنّه ذهب إلى الطرش ولا بد أن يعود سريعًا، وصمتُّ عن قول باقي الحقائق. وسألتُه بدوري، بعد أن نخزني الشك، إنْ كان قد كتب قصائد جديدة لريم، فقال: «لا وقت للشعر الآن!»

صمتنا فترةً من الوقت، راح سالم خلالها يجوب السماءَ بعينيه، بينما سرحتُ أنا في داخلي أبحث عن طرف قصيدةٍ أقولها لصاحبي. لكنّه سحبني من نفسي وهو يقول: «لا يعقل أن يكون الفصلُ ربيعًا. إنّ الأعشاش صامتة!» فرحتُ أجولُ برفقته نبحث عن الحساسين، دون جدوى.

حين عدتُ إلى البيت، كانت والدتي تلملم بعضَ الحاجيات وتضعها في بقج سمينة. وقالت: «من يدري؟ لساعة الحاجة!»

انزويتُ في عمق الغرفة. حملتُ القلمَ والورقةَ بين أصابعي ورحتُ أبحث عن الكلمات المنغّمة لأكتبها ولأشرح بها حالي بعد الذي حدث، فجافتني مجددًا وأخذتْ تنسكب على الورقة تعابيرَ جافةً لا طعم فيها ولا لون.

نهرتني والدتي، فقمتُ إليها أساعدها ووخزاتٌ من الألم تعضّني. فكيف لي أن أنسى كلَّ ما يدور حولي وأتلهى بالبحث عن كلماتٍ لستُ أَمْلكها لأقدّمها إلى شخص لا أملكه؟ ما هذه إلاّ أنانيةٌ لا طائل منها! وهكذا رحتُ أمدّ يدَ العون لوالدتي، وصريرُ أضراسي يمنعني من الصراخ.

[...]

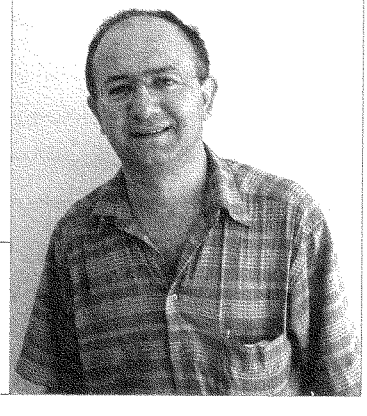

**د. أحمد سليمان (عكا ـ ١٩٦٠):**

طبيب أسنان. له أربع روايات، ومجموعة قصص قصيرة، ومسرحيات، وقصص للأطفال.